العدد التاسع

المحور : الحرية والمسؤولية والمواجهة الجماعية للمشكلات

بين المتغيرات العالمية والثوابت الإسلامية

محمد السماك *

يقول المستشرق الإنكليزي "مونتغمري وات" في كتابه "الفكر السياسي الإسلامي": إذا ألقينا نظرة عامة على العلاقة بين الدين والسياسة، فإن من المفيد الاهتمام أولاً بموقع الدين في حياة الفرد.

فبالنسبة للشخص الذي يشكل الدين عنده معنى خاصاً، وليس مجرد تعلّق شكلي، يمكن التأكيد على نقطتين:

النقطة الأولى: أن الأفكار التي تتضمنها ديانته ترسم له الإطار الثقافي الذي يحيط بنشاطاته وبأعماله كلها. ومن خلال هذه العلاقة تكتسب نشاطاته أهميتها. كما أن هذه العلاقة قد تؤثر بطرق معينة على البرنامج العام لحياته.

النقطة الثانية: أن الدين من حيث إنّه يؤدي بالمؤمن إلى وعي المضمون الأوسع الذي تقوم عليه الأهداف الممكنة لحياته، يولّد –الدين- لديه الحوافز المحرِّكة لسائر النشاطات التي يقوم بها.

وبالفعل فإنه من دون هذه الحوافز الدينية، لا يمكن القيام بالكثير من هذه النشاطات.

ومن خلال هاتين النقطتين يتبين لنا كيف أن الدين يحتل موقعاً مركزياً في حياة الإنسان، ليس من حيث إنّه يقررُ الكثير من التفاصيل (مع أنه يفعل ذلك بالفعل في بعض الحالات)، ولكن من حيث إنه يوفر للإنسان أهدافاً عامّة في الحياة، ويساعده على التركيز وعلى تجميع قواه من أجل تحقيقها(1).

وهذا يعني أنه لا قيمة لحياة الإنسان إذا لم تكن له خلفية ثقافية يستمّد منها معنى لحياته، وبالتالي فإن تذويب أي ثقافة خاصة هو تذويب للقيم التي تقوم عليها إنسانيته، وتدمير لها. وعندما يتداخل الدين مع الثقافة، أي عندما يكون الدين مكوِّنا بامتياز، أو المكوّن الأساس للثقافة، يأخذ الدفاع عن الخصوصية الثقافية بُعداً مقدَّسا على النحو الذي نشهده اليوم في مواقع متعددة من العالم، بما في ذلك – وخاصة- في عالمنا العربي- الإسلامي.

إذا كان هذا الدور المركزي للدين في ثقافة الفرد والمجتمع يشكل أساساً ثابتاً ومستمراً فإنه يواجه اليوم عالماً دخل مرحلة جديدة تتلاشى معها الحدود السياسية وتتداخل فيها الثقافات والتقاليد الدينية والاجتماعية. فقد تحولت القضايا الوطنية (مثل حقوق الأقليات وحقوق الأفراد وحرية العبادة وسواها) إلى قضايا عالمية تتجاوز الأطر الوطنية أو

المجتمعية المحدودة. وكذلك تحولت القضايا العالمية (مثل السلام والتنمية وحركة رؤوس الأموال والاستثمارات والخدمات وتبادل السلع) إلى قضايا وطنية وداخلية.

تضع هذه المتغيرات العميقة والشاملة العالم العربي والإسلامي، الذي يعاني من التخلّف من جهة ومن الخوف على الذات من جهة ثانية، أمام تحديات تحتم عليه صياغة نهج جديد وأسلوب جديد للتعامل مع هذا العالم. إن مظاهر هذا التخلف تصفع الإنسان العربي والمسلم قبل أن تثير تساؤل الإنسان الغربي. إلا أنَّ البحث عن أسباب التخلّف عن مواكبة العصرنة والحداثة يقودنا إلى التوقف أمام العوامل التالية:

1- تعريف الحداثة والعصرنة وتحديد مقاييسها ومواصفاتها.

2- دور الدين كحافز أو كعائق في التحديث والتطور (نظرية ماكس فيبر- الأخلاق البروتستنتية والرأسمالية-).

3- ربط التحديث بالاستتباع في الثقافة الغربية (نظرية بنجامين كيد).

4- ربط التحديث بالمحافظة على الذات في الثقافة المشرقية العربية –الإسلامية (نظرية الإصلاحيين من رفاعة الطهطاوي- محمد عبده- رشيد رضا- جمال الدين الأفغاني- شكيب أرسلان حتى مالك بن نبي).

في الأساس ينفتح العالم العربي والإسلامي ثقافياً وحضارياً على الآخر بكل ثقة وبلا تحفظ، من عهد المأمون الذي أسَّس بيت الترجمة عن التراثات اليونانية والفارسية والهندية، حتى عهد عبد الناصر الذي وضع مشروع ترجمة الألف كتاب، مروراً بعهد محمد علي الذي أوفد إلى الغرب العشرات من البعثات الطلابية لمواكبة التقدم العلمي والتقني في أوروبا. مع الإشارة السريعة إلى الدور المهم للأديرة في لبنان في الترجمة والطباعة باللغة العربية.

لم يكن الدين عائقاً في وجه هذا الانفتاح، بل إن في الدين الكثير من الحوافز التي مارست دورها الفعّال في عملية السعي وراء المعرفة والعلم "ولو في الصين". غير أن هذا التوقّ للانفتاح كان يصطدم دائماً بنظريات معاكسة لعل آخرها نظرية "صراع الحضارات" التي طلع بها المفكر الأميركي "صموئيل هنتغتون"، ذلك أن هذه النظرية قد تكون وجهاً عصرياً لنظرية بنجامين كيد Benjamin Kidd التي يدعو فيها إلى هيمنة العنصر الإنكلوسكسوني على العالم، لأنه كما يدّعي "العنصر الأقوى والأفضل ولأنه رائد التحديث والتطوير الإنسانيين".

ولقد ذهب ألبرت بايت Albert Bayet إلى حد اعتبار الاستعمار إثراء للشعوب المستعمرة فكرياً وعلمياً وحضارياً ما يجعل منه –أي من الاستعمار- واجباً على الشعوب المتقدمة وحقاً للشعوب المتأخرة.

طبعاً من السذاجة ربط عدم مواكبة العالم الإسلامي إنتاجياً –وليس استهلاكياً فقط-

للنهضة الحضارية المعاصرة، بالدور الخارجي وحده، وإن كان من السذاجة في الوقت نفسه التقليل من فعالية هذا الدور.

إن الوعي العربي – الإسلامي بواقع التخلف، والوعي بضرورة بذل قصارى الجهد لمواكبة التقدم، والوعي بالثمن المطلوب أداءه من أجل التغيير المنشود ليس مسألة بسيطة وليست مسألة قابلة للتجاهل. وكما يقول الفيلسوف النمساوي غادامر: "صحيح أن الوعي يملك مقومات ثقافية بارزة، ولكن التغيير لا يتم في الوعي، بل في الواقع، وهو سياسي واجتماعي وفردي".

وكما يقول غادامر أيضاً، فإنه "في ظروف الأزمنة الصعبة المزلزلة يتراجع الوعي بالمصالح لصالح ثقافة الهوية فيبدو أنه لا مخرج من الأزمة أو المأزق إلا بالصدام مع الخصم الحقيقي أو الموهوم".

إن التعامل مع المتغيرات العالمية بفكرٍ اعترافي لا إنكاري، وبروح استيعابية لا تصادمية، وبأسلوب نقدي للذات لا رفضي للآخر، يقتضي استلهام الحكمة في الموقف وفي السلوك معاً من الثوابت الإسلامية.

فالإسلام يقول بوحدة الإنسانية وبتنوعها، ويرسي أسساً ومبادئ لاحترام التنوع والتعدد الإثني والثقافي والديني بحيث تشكل هذه الأسس والمبادئ جوهر العقيدة الإسلامية، لا يكتمل إيمان المسلم بل لا يكون أساساً من دونها.

وفي القرآن الكريم عدد كبير من الآيات الكريمة التي تؤكد على ذلك.

فالله -سبحانه وتعالى- كرّم بني آدم، أي أن الكرامة الإلهية للإنسان تشمل الناس جميعاً وليست وقفاً على مؤمن دون آخر، أو على المؤمنين دون سواهم.

ثم إن الله سبحانه استخلف الإنسان في الأرض ولم يستخلف أمة دون أخرى.

والله –سبحانه- خلق الناس جميعاً من نفس واحدة تأكيداً للمساواة بينهم، ثم جعلهم أمماً وشعوباً متعددة الألسن، مختلفة الألوان والأجناس متنوعة الشرائع. ولو شاء غير ذلك فإنما يقول له كن فيكون.

تفصيلاً لهذه القواعد الكلية، سوف اقتطف ثلاث آيات كريمة من بين العشرات من القرآن الكريم.

تقول الآية الأولى: (يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)(2). تكشف هذه الآية الكريمة عن ثلاث قواعد:

القاعدة الأولى هي الوحدة الإنسانية. بمعنى أن الناس جميعاً يشكلون أمة واحدة خلقهم الله من نفس واحدة. ولقد قال القرآن الكريم (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى).

القاعدة الثانية هي التنوع الإنساني حيث تتابع الآية الكريمة (وجعلناكم شعوباً وقبائل)

أي إن هذا التنوع جُعل بإرادة إلهية، وإن وجوده هو تجسيد لهذه الإرادة الإلهية وتعبير عنها.

القاعدة الثالثة هي أن الهدف من هذا التنوع هو التعارف بين الناس تحقيقاً لوحدة تحفظ التنوع وتحترمه وتصونه. حيث تكتمل الآية القرآنية بتحديد الحكمة من التنوع بقولها (لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

فالمتعارف هو الجسر الذي يربط بين الجماعات المتنوعة والمختلفة ولكن لا تعارف من دون معرفة. ذلك أن التعارف يقوم أساساً على المعرفة. ويفترض بالآخر أن يكون مختلفاً حتى نتعرف إليه. ويفترض أن نكون نحن مختلفين عنه حتى يتعرّف إلينا. ومن دون هذا الاختلاف ما كانت هناك حاجة للمعرفة، وما كان للتعارف أساساً أن يكون. من هنا فإن الدعوة القرآنية للناس ليتعارفوا هي في حدّ ذاتها دعوة لهم للتعرّف على ما بينهم من اختلافات وللاعتراف بهذه الاختلافات، ولإدراك حتمية استمرارها، ولبناء مجتمع إنساني واحد ومتناغم على قاعدة معرفة المختلفين وتعارفهم.

كثيرة هي الإشارات إلى الاختلاف والتنوع التي وردت في القرآن الكريم، أذكر منها:

(وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا)(3).

(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين)(4).

(ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن ليدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من وليّ ولا نصير)(5).

لقد شاءت الحكمة الإلهية أن يكون الناس رغم وحدة الخالق، ووحدة الخلق أمماً وشعوباً مختلفة. فالوحدة الإنسانية تقوم على الاختلاف والتنوّع وليس على التماثل والتطابق. ذلك أن الاختلاف آية من آيات عظمة الله ومظهر من مظاهر روعة إبداعه في الخلق. يقول القرآن الكريم: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين)(6). وبالتالي فإن الاختلاف العرقي لا يشكل قاعدة لأفضلية ولا لدونية. فهو اختلاف في إطار الأسرة الإنسانية الواحدة، يحتم احترام الآخر كما هو وعلى الصورة التي خلقه الله عليها.

إذا كان احترام الآخر -كما هو- لوناً ولساناً (أي إثنياً وثقافياً) يشكل قاعدة ثابتة من قواعد السلوك الديني في الإسلام، فإن احترامه كما هو عقيدة وإيماناً هو إقرار بمبدأ تعدد الشرائع السماوية واحترام لمبدأ حرية الاختيار والتزام بقاعدة عدم الإكراه في الدين.

فالقرآن الكريم يقول: (ولكل وجهة هو مولّيها)(7). وفي إشارة واضحة إلى تعدد التوجهات يقول أيضاً: (وما بعضهم بتابع قبلة بعض)(8).

(لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنّك في الأمر وأدع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم)(9).

(كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون)(10).

معنى ذلك، أنه مع اختلاف الألسن والألوان كان من طبيعة رحمة الله اختلاف الشرائع والمناهج، وهو ما أكد عليه القرآن الكريم بقوله: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما أتاكم، فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)(11). فالاختلاف الثقافي والعرقي والديني والمذهبي باقٍ حتى قيام الساعة، والحكم فيه يومئذ لله. والتعامل مع بقائه لا يكون بإلغائه ولا بتجاهله، بل بالتعرّف إليه وتقبّله واحترامه كسنّة دائمة من سنن الكون.

في الأساس "الحق واحد" كما يقول أبو الوليد الباجي في كتاب أحكام الفصول في إحكام الأصول. "وأن من حكم بغيره فقد حكم بغير الحق. ولكننا لم نكلف إصابته، وإنما كلفنا الاجتهاد في طلبه. فمن لم يجتهد في طلبه فقد أثم، ومن اجتهد فأصابه فقد أجر أجرين: أجر الاجتهاد وأجر الإصابة للحق. ومن اجتهد فأخطأ فقد أجر أجراً واحداً لاجتهاده ولم يأثم لخطئه".

هذا يعني أن الاجتهاد كعمل فكري إنساني مفتوح على الصواب والخطأ. وبالتالي فإنه ليس مقدساً، وإنه ليس لأحد حقّ احتكار الصواب بالمطلق. أو حقّ توجيه اتهام الفكر المختلف بالخطأ بالمطلق. فمن أبرز صفات السماحة الإسلامية أن المفكر أو المجتهد المخطئ لا يؤثم على خطئه، بل يُؤجَر على اجتهاده، حتى إذا أصاب يؤجر ثانية لإصابته الحق. من هنا قول أبي حنيفة: "رأيي صحيح يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب".

إن الاعتقاد بأن جماعة ما هي وحدها التي تفهم النص الديني فهماً صحيحاً، وبالتالي فإن هذه الجماعة هي وحدها المؤتمنة على الدين، وإن كل من هو خارج الالتزام بمفهومها، وبها، هو خارج على الدين، هذا الاعتقاد يتناقض في الجوهر وفي الأساس مع الدين كمعطى إلهي، ويتناقض مع الموروث الفكري الديني كمعطى ثقافي واجتهادي والذي يشكل ثروة فكرية لسلسلة غنية من التجارب الإنسانية في الفهم الإنساني للنصّ الإلهي المقدس. يرسي الإسلام قواعد لعلاقة الإنسان بنفسه ولعلاقته بأخيه الإنسان (سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن) ولعلاقته بمجتمعه، ولعلاقته بربه. هذه القواعد الكلية تشمل قضايا وأموراً حياتية تتغير بتغير الأزمان والمجتمعات. ولذلك فإن الحكمة الإلهية قضت بصياغة النصوص الدينية بحيث تترك المجال مفتوحاً أمام الفكر الإنساني لفهمها وهضمها ولاستنباط الأحكام منها وفقاً للمستجدات والمتغيرات التي تواكب حركة التطور الإنساني.

وفي الأساس أيضاً لا تكون الوحدة إلا مع الآخر، والآخر لا يكون إلا مختلفاً. وإلا فإنه لا يكون آخر. هذا يعني أن المحافظة على الوحدة تتطلب المحافظة على الآخر، وإن استمرارها هو استمرار له. وهو يعني بدوره إن الوحدة يجب أن لا تؤدي بل يجب أن تعني أساساً محاولة إلغاء الآخر أو تذويبه، وألا يصبح وحدة مع الذات. فما من وحدة قامت واستمرت وازدهرت إلا وفيها تماه للآخر. وما من وحدة تهاوت وتفتّتت إلا نتيجة

امتهان حق الآخر المكوّن لها في أن يكون نفسه، أي أن يكون آخر.

يتحدث فرويد عن نرجسية الاختلاف. ويقول: إنه مهما كان الاختلاف محدوداً فإنه يحتل موقع القلب في هوية كل منا.

أرسى الإسلام ثلاث قواعد أساسية تقوم عليها الوحدة في التنوع.

لا يتناقض الاختلاف مع الوحدة الإنسانية، فالعلاقة التكاملية بين الوحدة والاختلاف تبرز من خلال المبادئ الثلاثة التالية التي قال بها القرآن الكريم:

المبدأ الأول هو التداول: (وتلك الأيام نداولها بين الناس)(12). إذ لو كان الناس كلهم شعباً واحداً أو إثنية واحدة أو على عقيدة واحدة وفكر واحد، لما كانت هناك حاجة للتداول. ولأنهم مختلفين، ولأن الإرادة الإلهية شاءت أن يكونوا مختلفين، فكان لا بد من التداول. والتداول يعني تواصل الإنسانية واستمرارها بما هو مناقض لمقولة نهاية التاريخ. فالتداول حياة، والنهاية موات.

المبدأ الثاني هو التدافع: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)(13). فالتدافع –وليس التحارب ولا التصادم- هو تنافس ارتقائي وتطويري للمجتمعات الإنسانية المختلفة. ذلك أن المجتمعات هي كالمياه، إذا ركدت أسنت، وإذا تحركت وتدافعت أمواجها، تعانقت مع حركة الضوء والريح مما يوفر لها عناصر الحياة والانتعاش والنمو والتقدم. فمن دون الاحتكاك الفكري والتلاقح الثقافي والتدافع الحضاري بين الناس المختلفين والمتنوعي الثقافات، يفقد الذهن عطشه إلى المعرفة التي هي عود الثقاب الذي يلهبه. إن الاختلاف بين الناس وما يشكل الاختلاف من تدافع هو أحد أهم مستلزمات عدم فساد الأرض.

المبدأ الثالث هو التغاير: (وما من دابة في الأرض ولا طائر بجناحيه إلا أمم)(14)، وقوله تعالى: (ولكل أمة رسول)(15)، وقوله تعالى: (كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم)(16).

فالتغاير والاختلاف هو القاعدة، وهي قاعدة عصية على التجاوز، تشكل الثابت الدائم في المجتمعات الإنسانية منذ بدء الخلق وحتى نهاية الزمن.

ولذلك أرسى الله قاعدة التعارف المكملة لقاعدة الاختلاف والتغاير. والقاعدتان معاً تشكلان الأساس الذي تقوم عليه الأخوّة الإنسانية التي لا سلام ولا استقرار من دونها.

إنّ إيمان المسلم لا يكتمل إلا بالإيمان بالمسيحية وباليهودية رسالتين منزّلتين من عند الله. ففي القرآن الكريم نصّ واضح بذلك (قولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)(17).

الآية الثانية التي أقتبسها من القرآن الكريم تخصّ أهل الكتاب من مسيحيين ويهود.

وتقول الآيـة: (قل يـا أهـل الكتـاب تعـالوا إلى كلمـة سواء بيننـا وبينكم ألا نعبـد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله)(18).

فالـدعوة إلى كلمة سواء هي في الأساس دعوة إلى البحث عن جوامع مشتركة تقوم عليها العلاقات بين المؤمنين بإله واحد وإن تعدّدت وسائل تعبيراتهم عن هذا الإيمان وممارستهم له.

أما **الآية الثالثة** فهو الـدعوة إلى معالجة الاختلافات والتباينـات بالتي هي أحسن. وتقول الآيـة الكريمـة: (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الـذي بينك وبينه عـداوة كأنه وليٌ حميم)(19). والـدعوة إلى التعامل حتى مع العدو بالتي هي أحسن تناقض اللجوء إلى العنف والإرهاب وترفض الإلغائية وتنكر التكفير. فالدعوة الإلهية إلى الدفع بالتي هي أحسن ليست مقتصرة على العلاقات بين المسلمين خاصة أو المؤمنين عامة، بل إنها تتسع لتشمل العلاقات بين الناس جميعاً.

إن مـن شـأن التعصـب للـدين أو للمـذهب أو للجماعـة أن يقيم جُزُراً من التنوع المتباعدة والجاهلة للآخر، وبالتالي المتشككة فيه والمستنفرة دائماً لمواجته، وهذا تنوع خارج إطار الوحـدة، بـل رافض لها. أما التعارف فإنه على العكس من ذلك يقيم وحـدة في إطار التنوع تتعرف على الآخر وتعترف به، وتبـادله الاحترام والثقـة والمحبـة، وهذه وحدة في إطار التنوع.

إن منطـق رفض الآخر، وإنكـار فكره المختلـف الـذي يقـول به، أو تجـاهله، أو محاولة إلغـائه، هـو منطـق إلغـائي للـذات. إنـه منطـق يوسـع دائرة الخصـوم والأعـداء، ويوفر المـبررات لاستدراج العـالم العربي- الإسـلامي إلى جبهـات صـراع غير صـحيحة وغير متكافئـة. بـل إنه يضع العـالم العربي- الإسـلامي في مواجهـة مع العـالم، الأمر الـذي يتخذ حجة لتبرير الاتهامات الجماعية التي توجَّه إليه ظلماً. والمسافة واسعة جداً بين الدعوة إلى الله "بالتي هي أحسن" التي يقول بها الإسلام السمح، والدعوة التكفيرية الإلغائية التي يقول بها الغلاة المتنطعون.

في العلاقـات الإنسانيـة سلبيتان لا تصـنعان إيجابيـة: "وحـدة تعسـفية تطمس الاختلاف والتنوع (كما كان الأمر في الاتحاد السوفياتي السابق)، وتعددية مطلقة تدير ظهرها للآخر المختلف وتـأبى الوحـدة على قاعـدة احـترام الاختلاف والتنوع، (كمـا هو الأمر اليوم في البلقان وفي مناطق أخرى من العالم)".

تتضـح من هنـا أهميـة مبـدأ التعـارف الـذي قال به الإسـلام من حيث إنه يقـوم على العلم والمعرفة، وهما من أسمى هبات الله للإنسان "وعلّم (الله) أدم الأسماء كلها".

والأسـاس الـذي تقـوم عليه إخوة إنسانيـة تغتني بالاختلاف وتحـترمه وتجعـل منه قاعدة للائتلاف والتوافق وليس للخلاف والتنابذ.

****

الهوامش

*) كاتب وباحث من لبنان.

[1] - Montgomery Watt, Islamic Political thought, Edinbugh Uni. Press, 1968, P.28.

2- سورة الحجرات: الآية 13.

3- سورة يونس، الآية 19.

4- سورة هود، الآية 118.

5- سورة الشورى، الآية 8.

6- سورة الروم، الآية 22.

7- سورة البقرة، الآية 148.

8- سورة البقرة، الآية 145.

9- سورة الحج، الآية 67.

10- سورة الجاثية، الآية 28

11- سورة المائدة، الآية 48.

12- سورة آل عمران، الآية 140.

13- سورة البقرة، الآية 251.

14- سورة الأنعام، الآية 38.

15- سورة يونس، الآية 47.

16- سورة الرعد، الآية 30.

17- سورة البقرة، الآية 136.

18- سورة آل عمران، الآية 64.

19 - سورة فصلت، الآية 34.